



في ملحمة "حلوّة" نجد مع العثمانيين

الموت فيها

"ولا نجس يدنسها"

في الرياض عام (1837) كان العثماني إسماعيل باشا الذي أوكل إليه القضاء على السعوديين والإمام تركي بن عبدالله قبل اثني عشر عامًا (1825) يوجب مجلسه غضبًا وغيظًا، وهو القائد المزهو بقوة دولته وامتدادها الجغرافي وإسقاط الدولة السعودية الأولى، ويخيم على مقر القوات التركية الغازية الصمت والاستغراب يُحيطان بمستشاريه وكبار جيشه، ويخيم على مقر القوات التركية الغازية للجزيرة العربية لتغيير إمامها ولإعادتها إلى الاحتلال العثماني، وذلك من خلال تعيين حاكم جديد لمنطقة نجد يتبع السلطنة العثمانية، ويخضع لها في كل تحركاته وشؤون حكمه.

ارتفع صوت القائد العثماني وسط جنود حملته بكبرياء وعنجهية بعد أن فُرئ له رد أهالي الفرع (الاسم القديم لحوطة بني تميم جنوب الرياض) برفض الخضوع للجيش التركي والتعبية له وسلطته ولعاصمته، فهامهم يصرخون في وجه التُرك: "إن كان الأمر للترك فحنن لهم محاربون!" في إعلان صريح عن عدم الخضوع لكل ما هو تركي غريب على أرض نجد وسمائها.

هذا الرد الشجاع من بلدة صغيرة في وجه جيش قوامه (7000) جنديّ يجعلهم يرمجون غضبًا، وهذا ما أودى بإسماعيل باشا إلى حالة من عدم الاتزان وقلّة التدبير وزيادة التوحش، إذ تشربّ أوامر قيادته بإخضاع عرب الجزيرة العربية محاولاً إذلالهم وإهانتهم، وإعادة جريمة حرب الدرعية التي ليست من الإنسانية في شيء، فأمر الباشا على وجه السرعة الحدادين والصناعات بعمل الفؤوس والقوقاربع، وأمر الجيش بالاستعداد لغزو أهل تلك الناحية، ثم أرسل إلى الأقاليم النجدية التي احتلها عنوةً يستلحقهم في جيشه لاجتثاث من يصفهم بالأشقياء العصاة، للتكثيف بهم واستحلال أموالهم وبلادهم.

في الجهة الأخرى، كانت مجالس حوطة بني تميم تناقش وتتداول بين كبارها الاستعداد ورد العدوان الذي يخطط له القائد العثماني وحماية الأرض والعرض، خاصةً أن ذكرتهم لا تزال تحتفظ بكثير من قصص طول الأترّك ووقائعهم وجسارتهم على المحرمات، وفنكهم بمن يتالون، ونقضهم العهود والمواثيق، وأشدها إيلافاً ما تحدث به النازحون إلى بلدتهم من أهل الدرعية الناجين من الغزاة الظالمين؛ لذا كان القول السائد الذي يتردد على ألسنة فتیان الفرع: "الموت فيها ولا نجس يدنسها".

حزم أهل حوطة بني تميم أمرهم، وأجمعوا على الترتيب والتخطيط للمواجهة المرتقبة، فبدأوا بإرسال "السُّبُور" العيون، يتتبعون أخبار الغزاة ويرصدون تحركاتهم وأعدادهم وعتادهم الحديد من المدافع والبنادق، وكانت المعلومات الواردة تتحدث عن مئات المقاتلين المدججين بالسلاح يقطعون المسافات والتضاريس متجهين إلى حوطة بني تميم (160 كيلاً عن الرياض) يتزايّدون ولا ينقصون، كلّمًا مروا ببلدة في طريقهم أمروا أهلها ليضموا إليهم ويخرجوا للقتال، لكن الأهالي في وادي الفرع استعانوا بالله العليّ القدير، ثم رسموا خطة المواجهة المحكمة.

في الثامن والعشرين من ربيع الأول عام (1253هـ) الموافق (1837م) أمر إسماعيل باشا قواته بالتحرك قاصداً حوطة بني تميم، سار يومه كاملاً من الرياض وبات ليلته عند مياه "الجزعة"، وفي اليوم التالي وصل إلى "الحاير" وأقام فيه يوماً واحداً ثم توجه إلى "السلمية" وبات فيها، ثم توجه منها إلى "الدلم" وأقام فيها عشرة أيام يتزود مع جيشه بالقمح والشعير، ثم توجه إلى "زميقة" وأقام فيها يوماً واحداً ثم أتى المياه المسماة "خفس دغرة" وأقام فيها ليلة واحدة، ثم عقد عزمه وتوجه إلى الحوطة، بعد أن أشار عليه أحدهم بغزو الحلوّة أولاً.

وقبل وصول الغزاة بأيام قرر أهالي الحلوّة بعدما علموا أنهم المستهدفون بالتحديد من قبل الجيش والباشا، وبعد ما سمعوا كثيراً عما يقترفه جيش العثمانيين من جرائم فوسوء، قرروا أن يُخفوا نساءهم وأبنائهم ومن ليس له قدرة على حمل السلاح والمواجهة في شعيب "مُطِيم" والملاذ الآمن الذي لن يصل إليه أي مسلّح تركي وفي الرجال البواسل رمق، وبذلك تكون بساتين الحلوّة وواديها ميدان المعركة المنتظر، ثم عمدوا إلى الآبار و"القلبان" مصادر مياه الشرب الوحيدة في المنطقة، فألقوا فيها عسبان النخل والتّين حتى لا يستفيد منها الغزاة، وأبقى أبطال الحلوّة لهم مورداً مائياً معروفاً اسمه "عُستِلان" يشربون منه وحدهم، ولا يستطيع الغزاة أن يصلوا إليه، ثم وضعوا المتاريس في سفوح الجبال التي يتوقعون أن ينزل منها الغزاة البغاة المعتدون، ووزعوا المهام بعد أن أحكموا خطة الكَرّ والفَرّ والاستدراج، وحفروا خندقهم، مستعينين بالله ثم بعدالة قضيتهم في الوقوف ضد المحتل الغاشم.

وفي السادس عشر من ربيع الثاني من العام نفسه، وصل إسماعيل باشا بقواته التركية الغاشمة إلى الحوطة، وتجنب النزول من واديها في مقصده إلى الحلوّة، فجعلها جانباً وأكمل المسير إلى الحلوّة، وكان تعداد أبطالها يومئذٍ مئتي رجل، ومعهم إخوانهم من بلدتي القويح والعبطيان ولسان حالهم يقول:

أسرجوها فإنه يوم فصل فيه بالريح نستفز الجيادا
من له كلمة فليقلها ساعة الحسم لو مضت لن تعادا
والرجال الرجال أول صف يحصد النصر من يخوض الشدادا

أقبلت جحافل الأترّك بغشاهم الكبر والخيلاء والزهو بعددهم وعتادهم، وفي الرابعة فجراً، كان الأترّك قد نصبوا مدفعين على رأس الجبل المُطلّ على الحلوّة، والجنود يحيطون بهما، ضربوا مباني الحلوّة وأحياها الآمنة بالقنابل، وبدأت معركة شديدة الضراوة أظهر فيها السعوديون بسالةً وصبرًا وثباتًا أذهل الأترّك بادئ الأمر، استخدم فيها الأبطال كل ما يعرفونه من أساليب الحرب، فاستدجروا الأترّك وانسحبوا إلى سفح الجبل ووصلوا إلى باطن الوادي، لكن الأترّك ومن معهم لم يندفعوا إلى باطن الوادي، عاد الأبطال مرة أخرى إلى متاريسهم واستأنفوا المعركة من جديد، وحين التحم الصقّان، تراجع إلى الحلوّة إلى الوادي ليستدجروا الغزاة من جديد، فابتلع العثمانيون الطعم هذه المرة، واندفعوا للمطاردة في الوادي وداخل البساتين في معركة حامية الوطيس، أشبه بحرب الشوارع والممرات، واشتد الأمر وأهل الحلوّة في قتال عظيم معهم من طلوع الشمس إلى ما بعد الظهر.

”

قتلوا

36% من الغزاة الأترّك.

“

”

دفنوا

قتلى الأعداء بأخلاق النبلاء.

“

قديم أبطال الحوطة إلى الميدان باذلين أنفسهم نصرةً لجيرانهم أهل الحلوّة بصد الأعداء ومحاربتهم بكل قوة، فالمصير واحدٌ والوطن واحد. دخل قسم من أهالي الحوطة ميدان المعركة مشاركين إخوانهم التصدي للمعتدين، بينما تسلل قسم آخر وصعدوا الجبل وعبونهم على المدفع التركي الشرس الذي يلقي قذائفه على بلدة الحلوّة ملحقًا الأضرار بها وبأبطالها، لتدور معركة شديدة بينهم وبين الأترّك المدافعين عن المدفع، يستميت الأترّك دفاعًا عن مدفعهم، أما المهاجمون من أهل الحوطة فكان مهمهم الاستيلاء على المدفع ليخلصوا إخوانهم من ضرباته، وبالفعل استطاعوا أن يلقوا بالمدفعين من أعلى الجبل، وبينما كانت المواجهة في أشد أوقاتها، انهزم الجيش التركي وقتل منهم الكثير على أرض المعركة الوطنية الشريفة، وتفرق الباقون هاربين على الجمال، وقسم كبير منهم هرب ناحية الذكراء ليهلك هناك في (أم العظام) كما تذكّر بعض الروايات الشفهية، فيلتحق أهل تلك والحريق نازلين مع الجبل الشمالي بإخوانهم في المعركة، فتشتد عزيمة الأبطال بنصرة إخوانهم، وتقوى عزائمهم، ليلاحقوا فلول العسكر.

رأى إسماعيل باشا بعينه جنوده يتساقطون ويتناثرون ويلوذون بالفرار، أيقن أن الهزيمة شتعاء والفضيحة نكراء، فركب حصانه مع بقية رفقته القليلة، ولاذ بالفرار، محملاً بالخزي والعار. وقد ذكر القائد العثماني المهزوم في تقريره العسكري الذي أرسله إلى قائده في المدينة المنورة مقتل (2488) حَيًّا ولا جنديًا، ولم يتبق منهم إلا (1688).

أشرقت على الحلوّة شمس جديدة ويوم جديد معزز بالانتصار والعزة والكرامة، وذاع صيتها بين البلدان بطرد الجيش التركي الحديث وإلحاق الذل به، ودحر مخططه الإجرامي، كيف لا؟! وهي حاضنة الخطوات الأولى لتأسيس الدولة السعودية الثانية بقيادة الإمام تركي بن عبدالله، فقد قدمت نموذجًا للولاء الوطني والدفاع عن الأرض.

"صفة" الروم

دُفن فيها "رماد" الغزاة العثمانيين

هام الأترّك المراهقون من معركة الحلوّة بعد الهزيمة على وجوههم في كل مكان، ولم ترعهم رماح الأبطال وبنادقهم كلما وجدوهم، وكان آخر سبعة منهم قد فُتروا إلى غار في عرض الجبل الجنوبي للحلوّة، سمي هذا الغار فيما بعد بـ"صفة" الروم" تصغيرًا لمساحتها - والصفة غرفة صغيرة لحزن التمور، ولأن كل تركي كان يُنسب إلى الروم، ويقوا هنالك مختبئين فيه لفترة وجيزة، فإذا كان النهار سكنوا فيه حتى لا ينتبه إليهم أحد، وإذا جاء الليل تسللوا إلى المزارع يسرقون منها قوتهم.

وبعد أيام لمحت امرأة من أهالي الحلوّة رجالاً يصعدون إلى عرض الجبل متجهين إلى ذلك الغار الصغير، تبعتهم بنظرة فرأتهم يستقرون داخله، عند ذلك أخبرت الرجال الأشاوس بوجود أولئك الجبناء، فتداعى "حماة الدار" وأخذوا أسلحتهم وتوجهوا إلى الغار، ثم وجدوهم هناك مختبئين، وبعد الاستقصاء عرفوا أنهم يسرقون وينهبون البساتين ويعتدون على الصغير والكبير لأيام عديدة، ولم يهربوا في حال سبيلهم ولم يسلموا أنفسهم ويطلبوا العفو، فتوصل الأهالي إلى فكرة ترد الاعتبار إلى قتلى المدافع من أهل الحلوّة بعد قناعتهم أن الجزء من جنس العمل، وحتى لا يفكر بقية الجيش التركي المتناثر في الاجتماع مرة أخرى للحرب، فأغلقوا فتحة الغار من أسفلها، وجمعوا الحطب والحشائش وألقوها للحوط من فتحة النيران العلوية، ثم أوقدوا النار فيهم لتبقى بصمةً وشمًا على محاولات المعتدين تدنيس هذه الأرض الطاهرة، وليعلموا ولاءهم للوطن وأئمتهم من أسرة آل سعود الكريمة وليقدموا نصرًا ينضم إلى انتصارات بلدات أخرى من أجل الدولة السعودية وترسيخ قاعدتها وقواعدها الإنسانية والحضارية، لذا أسماها المؤرخ السعودي عثمان ابن بشر (توفي: 1873) في حينها بملحمة نجد الكبرى.

- 1) عثمان بن بشر، عنوان المجد في تاريخ نجد، تحقيق: عبدالرحمن آل الشيخ، 3 ط (الرياض: وزارة المعارف، 1974).
- 2) محمد بن بليهد، صحيح الأخبار عما في بلاد العرب من الآثار، 3 ط، (الرياض: مزار للطباعة، 1998).
- 3) خالد الفرج، الخبر والعيان في تاريخ نجد، تحقيق: عبدالرحمن الشقير (الرياض: مكتبة العبيكان، 2000).
- 4) عبدالله البسام، علماء نجد خلال ثمانية قرون، 2 ط (الرياض: دار العاصمة، 1999).
- 5) خليفة المسعود، "خالد بن سعود وعبدالله بن ثنيان بين التأييد المحلي والدعم العثماني"، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، جامعة الكويت، مجلد 24، ع. 93، (2005).